

الفصل الثاني

الارادة - امراض الارادة - تربية الارادة

في وسع كل منا تربية ارادته اذا اتبع قواعد
يرسمها لنفسه حيث يؤدي اتباعها الى قيامه
بشتى الاعباء الملقاة على عاتقه مع اتقانها
والتجويد فيها الى حد النبوغ المنشود .

الارادة

الارادة في اللغة نزوع النفس الى الفعل، بحيث يحملها ذلك الميل عليه .
وقيل : ان يعتقد الانسان شيئاً، ثم يعزم عليه ثم يريد . وقيل : هي في الاصل
قوة مركبة من شهوة وحاجة وأمل . ثم جعلت اسماً لنزوع النفس الى
الشيء ، مع الحكم فيه انه ينبغي ان يفعل او ان لا يفعل .
قال البيضاوي : « هي ترجيح أحد المقدورين على الآخر، وتخصيصه بوجه
دون وجه او معنى يوجب هذا الترجيح . وهي اعم من الاختيار ، فإنه
مع تفضيل . »

والارادة هي الطريقة التي يتبعها العقل اذا ما عرض عليه شيان او اكثر
لنختار احدهما ، ويتبع هذا الاختيار العملي . وهي الصراع الأبدي القائم
بين عقل الانسان واهوائه وميوله . فالتناس يتكلمون ويعملون كما لو كانت
الارادة عملاً ناقصاً او غريباً عن طبيعة الحياة البشرية . ولكن الارادة لا
تقلّ شيئاً في طبيعتها عن التفكير او الشعور . وهي تملك علينا كل يوم حياتنا
بما لا يحتاج الى ايضاح .

ويسمى الفعل ارادياً ، عندما يصدر عن صاحبه بعد التفكير . ومعنى
ذلك ، انه لا يندفع اليه بتأثير الغريزة او بتأثير العادة . ولا بدّ للفعل
الارادي من ان يكون :

١ - جديداً . ومعنى ذلك انه ليس تقليد اعمال سابقة تعودناها
العادة او فطرنا عليها الفرائض . بل انه فعل يمتاز بجديته او بطرافته . ومعنى
آخر ان محتواه النفسي اغنى من محتوى الافعال الاخرى التي تصدر عن
العادة او التقليد او الغريزة .

٢ - تأملياً . ومعنى ذاك ان في كل فعل ارادي تفكيراً سابقاً يتأمل
الغاية المطلوبة ، وينظر الى الوسائل التي تحققها ، ويناقش في قيمة الغاية
والوسائل معاً .

٣ - ذو صفة شخصية . ومعنى ذلك ان الفعل الارادي ينبثق من
ذات معينة يصورها ويعب عنها . وكأنه بذلك يصوّر شخصية معينة لها
جملة مواهب وميول واتجاهات . ولهذا كانت اعمالنا الارادية صوراً
لذواتنا ونزعاتنا .

وللفعل الارادي جملة شروط نفسية ، بعضها من نظام عاطفي ، وبعضها الآخر من نظام عقلي . اما من الوجه الأول ، فلا ارادة بدون ميل او رغبة . والرغبة هي المحرك الذي لا غنى عنه للارادة . أما من الوجه الثاني ، فانه لا ارادة ايضاً بدون معرفة العمل الذي يجب انجازه . والنتيجة التي يجب ابتغاؤها .

وقد أراد بعض الفلاسفة ارجاع الارادة الى الرغبة (وهذا رأي الفلاسفة الحسيين مثل « كوندياك » (١٧١٥ - ١٧٨٠ م .) وكما ان الانتباه في رأيه ليس سوى احساس مهيمن او منحصر ، فكذلك الارادة ليست الا رغبة مسيطرة او مهيمنة او مطلقة . ولا شك ان الارادة تقتضي الرغبة . وقد رأينا ان ارادات الاطفال ليست الا رغباتهم . الا ان الارادة في الغالب غير الرغبة . لأننا عندما نقوم بفعل ارادي نشعر بجهد لا نشعر بمثله عندما نحقق رغبة من الرغبات . فالتعب اللاهث يطلب الماء مباشرة . فاذا شرب حقق رغبته ولم يقاومها . ولكنه لا يكون في عمله قد حقق ارادة ، لأن الارادة هنا تقتضي مقاومة الرغبة حتى لا نقع باضرار الشرب في مثل هذه الاحوال .

وقد اراد فلاسفة آخرون ارجاع الارادة الى العقل ، وهذا هو رأي الفيلسوف « افلاطون » (٤٣٠ - ٣٤٨ ق . م .) و « ارسطو » (٣٨٤ - ٣٢٢ ق . م .) قديماً . ورأي « سبينوزا » (١٦٣٢ - ١٦٧٧ م .) ورأي الفيلسوف « لابي » (١٧٧٩ - ١٨٥٠ م .)

ويرى « سقراط » (٤٧٠ - ٣٩٩ ق . م .) و « افلاطون » ان الانسان

لا يعمل الا ما يعلم انه خير. وليس من رجل شرير بمحض ارادته. والفضيلة علم والرذيلة جهل. فإذا عرف الانسان الفضيلة حققها، وإذا جهلها اتى الشر، لأنه لا يعرف الخير.

اما «سبينوزا» فيرى ان الارادة والعقل شيء واحد لا شيان. ويرى «لابي» ان العمل يكون ارادياً عندما يحكم العقل عليه بانه حسن ويمكن. وعندنا ان الارادة لا ترد الى العقل وحده، لأنه ليس من شك ان للدوافع العاطفية اثراً كبيراً في الارادة. وكثيراً ما نلاحظ ان قوة التفكير والاغراق فيه مصحوبان بالتردد وضعف الارادة.

هذا كله بما حدا ببعض الفلاسفة الى اعتبار الارادة ملكة مستقلة لا علاقة لها بعواملها. وهكذا زعم «ويلهلم جيمس» (١٨٤٢ - ١٩١٠ م). ان الارادة شيء قائم بذاته. فالعقل يوجهه الفعالية، والعاطفة تحرّكها. ولكن الارادة هي التي تقرّر.

واذا سمينا اصحاب هذا الرأي «بالفلاسفة الاراديين» فانه يمكننا تمييز ثلاثة وجوه لآرائهم، ونرى ثالثها اقرب الوجوه الى الصواب.

١ - اما الوجه الأول، فهو الرأي القائل بان الارادة مستقلة عن البواعث العاطفية والعوامل العقلية، اي انها مستقلة عن الرغبات والتصورات. ولا شك ان في هذا الرأي جانباً من الصواب، لانه اذا كانت الرغائب والتصورات لا تكفي وحدها لانشاء العزم او التقرير الارادي، او لا تؤدي اليه بصورة آلية، واذا كانت ههناك هنيهات تردّد، فذلك يعني اننا نملك على الاقل قدرة على التوقف تستطيع ان تعطل اثر

الغائب والتصورات . وهذه القدرة على التوقف قد تكفي وحدها لإنشاء مفهوم الإرادة . الا ان هذا الرأي ليس بمقبول تماماً ، اذ من اين تستمد الإرادة قدرتها على مقاومة الدوافع العقلية والعاطفية ؟ فاذا كانت تستمد هذه القدرة من قوة دوافع عقلية وعاطفية اخرى ، فاننا نعود بذلك الى نظريات لا يقبلها اصحاب هذا الرأي . واذا كانت تستمدّها من قوّتها الخاصة ، فمعنى ذلك ان الإرادة تصبح سرّاً غامضاً ، لا يمكن تعليقه وتحليل عناصره .

٢ - واما الوجه الثاني فهو اعتبار الإرادة محصلة للعوامل العقلية والبواعث العاطفية . والحق ان العقل يقتضي ان يكون كل قرار ارادي نتيجة للحالة النفسية التي يكون فيها الانسان حين يتّخذ . ثم ان تحليل الشعور يطلعنا على ان كل تغيير في اتجاهاتنا الارادية يقابله تغيير في حالتنا النفسية ، او ظهور رغبة او فكرة حقيقية لم نجدّها من قبل فيها . ومع ذلك كله فان هذا الرأي ليس اكثر وجاهة من الرأي السابق : ذلك اننا في كل لحظة من لحظات الحياة نناثر بطائفة من القوى التي لا بد من وجود إرادة محصلة لها ، ومع ذلك فاننا لا نعمل دائماً . وقد يعرض لنا ان نعلق قرارنا ونقف دونه . واذا عملنا ، فلا نلاحظ ان كل اعمالنا تعتبر ارادية . وهذا يعني اخيراً ان الإرادة شيء آخر غير محصلة القوى التي تدعونا الى العمل .

٣ - ويبقى بعد ذلك ان تكون الإرادة توكيماً للعوامل والبواعث . اما المحصلة فقد يفهم منها انها تنشأ عن تفاعل القوى بصورة آلية ، وبدون

ان يكون لذواتنا فيها أثر. اما التركيب فهو عمل الذات او عمل ال (افنا) التي تجذب العوامل والبواعث الجديرة بإشارة فعل يطلبه العقل . ويذكر «ريبو» (١٨٣٩ - ١٩١٦ م) حالة كثير من المرضى الذين يرون بكل وضوح جملة الاسباب التي توحى باتخاذ قرار من القرارات وتراهم كذلك يرغبون باتخاذ هذا القرار ويفهمون ضرورته ، ولكنهم مع ذلك لا يستطيعون اتخاذه . وهناك ايضاً طائفة من النفوس المترددة التي لا تنتهي من بحث ما يدعو وما لا يدعو الى اتخاذ هذا القرار او ذاك . وهناك ايضاً من يعمل بتأثير الدوافع الحاضرة بصورة سريعة ، لا ينتظر معها ان يلمح جملة اعتبارات قد تكون غائبة عن البال ، في ساعة العمل . ولا شك ان هؤلاء جميعاً تنقصهم هذه القدرة على التأليف بين جملة القوى التي يتعاقب تأثيرها في نفوسهم . وليس من عمل انساني حقاً ، او ارادي حقاً ، بدون هذه القدرة على التأليف او على التركيب .

ولنلاحظ ان هذا التأليف لا يتم بين جملة القوى الشعورية فحسب ، ولا يتم كله في دائرة الشعور الواضح . بل كثيراً ما تأتلف القوى الشعورية والاشعورية معاً ، في تركيب ارادي عالٍ . وكثيراً ما يتم هذا التأليف على هامش الشعور . فاذا ما ظن انسان انه يتخذ قراراً ما بحكم الاسباب الموجبة البارزة في مسرح الشعور ، فان هنالك الف احتمال للاعتقاد بان الاسباب الاشعورية المؤيدة هي الاقوى والاكبر أثراً . وان تلك الاسباب البارزة ليست كذلك ، الا لأن وراءها في الجانب الاشعوري من النفس ما يؤيدها ويجعلها قوية .

ولنلاحظ الآن ان هذا التركيب الارادي مسبق بتحليل ، تتحطم فيه الآليات المؤتلفة ، والعادات المستحكمة لتصبح عناصر بسيطة حرة مرنة ، يمكن انشاء تركيب جديد منها. ولهذا شبه العمل الارادي بالعمل المبدع ، لأنهما يشتركان في الحاجة الى تحليل المركبات القديمة ، والخروج عن المتابعات التقليدية ، والوصول من ذلك الى مركبات جديدة جامعة .

امراض الارادة

ان الارادات الطبيعية او المتزنة هي تلك التي يتم فيها التوازن بين القوى الدافعة الى الفعل ، والقوى الممانعة عنه . ومن الواضح اننا لا نعني بهذه القوى الاخيرة القدرة الانسان على التوقف عن الفعل ، ما دامت المناقشة لم تنضج الرأي فيه . فاذا ضعف التوازن بين هذه القوى ، نشأت لدينا انواع من الارادات ، يمكن تسميتها بالارادات المريضة .
وهناك ارادات ضعيفة ، ينشأ ضعفها عن فقدان القدرة على التوقف . وهذه هي الارادات الاندفاعية التي تقرر وتعمل دون مناقشة كافية .

وهناك أيضاً ارادات مريضة ، ينشأ ضعفها عن فقدان القدرة على الفعل ، فالمترددون مثلاً يقلّبون وجوه الرأي الف مرة ، ثم يعيدون الكرة ، دون ان يستطيعوا الوصول الى اتخاذ قرار مناسب ؛ بل كثيراً ما يلوح لهم ان قراراً ما هو الأنسب في موقف من المواقف .

والكنهم لا يملكون الانتقال من الحكم بصحة القرار الى اتخاذ القرار نفسه .
فاذا تضاءلت عند الانسان هاتان القدرتان معاً : اي القدرة على العمل
والقدرة على التوقف فقد اصبحت من ذوي الارادات الضعيفة الذين يتروكون
للآخرين امر اتخاذ القرارات المناسبة عنهم ويمضون على حسب رأيهم .

وهناك ارادات ينشأ ضعفها عن افراط في بعض عناصر الارادة ،
كالافراط في التوقف الذي نراه يشل حركة بعض الناس ويجعلهم يتهيّبون او
يخشون من كل خطوة يخطونها خوفاً من ان يكون وراءها ما لم يقدّروا
وجوده من قبل . وعن الافراط في التوقف ينشأ ضعف آخر في ارادة بعض
الناس يتجلى في العناد اي في ضعف قدرة الانسان على الخروج من وجهة
نظره الى وجهة اخرى تبدو له كأنها يقدّر ايضاً ان وراء هذه الوجهة
الجديدة اموراً قد لا تحمد مغبتها ، او كالافراط في الاندفاع الذي نراه في
بعض الناس الذين يقدّمون على كل المخاطر في سبيل الوصول الى اهدافهم
كأن يحاول الانسان شرب الحمرة مثلاً ولو كان دونها الف خطر وخطر بل
ولو كان بينه وبينها الف جندي باسلاحتهم وهم مستعدون لقتله قبل
الوصول اليها .

فاذا كان الافراط في قوة الاندفاع وقوة التوقف معاً نشأ لدينا نوع
من ضعف الارادة الذي يمكن تسميته بالاضطراب . ذلك ان هذا النوع قد
يتجلى بارادات اندفاعية احياناً ، كما يتجلى بارادات عنيدة احياناً
اخرى . وكل ذلك بحكم فقدان القواعد التي يمكن للعقل تحكيمها في جملة
الافعال .

والخلاصة ان الارادة هي كل عمل مسبق بتفكير . ومن صفات هذا العمل انه جديد ، تأملي شخصي . ولقد رأى الفلاسفة المدرسيون ان في كل فعل ارادي اربع مراحل هي تصور الفكرة ومناقشتها وتقرير شيء ما فيها ، وتنفيذه بعد ذلك . وقد رأينا ان العمل الارادي قلما ينقسم بهذا الوضوح .

ويمكن التفكير بارجاع الارادة الى الرغبة ، الا ان هذا الارجاع صعب ما لم نكن في جو الاطفال نريد ما يريدون او نلهو كما يلهون . اما ارادة الرجل الراشد فشيء آخر غير الرغبة ، لأنها تقتضي جهداً ومقاومة ليس في الرغبة مثيل لهما . وكذلك يمكن التفكير بارجاع الارادة الى محصلة الميول المتنازعة ، وهذا غير صحيح ايضاً ، لأن المحصلة تتم وتتكون من غير مشاركة للشخصية المريدة ، في حين ان الفعل الارادي شخصي قبل كل شيء ، ثم انه يمكن التفكير بردّ الارادة الى العقل او الى مبدأ مستقل قائم بذاته . وقد رأينا ان ذلك كله غير صحيح ، لأن الارادة تقتضي مشاركة الشخصية بكل ما فيها في الجانب الشعوري واللاشعوري على السواء ، كما تقتضي قدرةً على التحليل والتركيب غير ضئيلة .

وللارادة امراض كثيرة ينشأ بعضها عن فقدان القدرة على الفعل ، او عن ضعف هاتين القدرتين معاً ، او عن قوة مفرطة في احدهما .

تربية الارادة

ان اكثر علماء النفس كويلهلم جيمس (١٨٤٢ - ١٩١٠) وبونييه المولود عام ١٧٦٠ ومورتن برنس (١٨٥٤ - ١٩٢٩) وبيار جانييه المولود عام ١٨٥٩ يجدون ان بالامكان تربية الارادة وتقويتها بشرط ان نقوم بالشروط الفزيولوجية التي تساعد على نمو القوة الارادية من حسن انتخاب الطعام وانتظام النوم والقيام بتارين رياضية معتدلة الخ. وذلك مع الاعتناء بالمسائل النفسية والروحية .

اننا نستطيع ان نعمل على تقوية الارادة وتربيتها مثلما نعمل على تحسين أية وظيفة اخرى بالتمرين . فكلما عملت على تقوية ارادتك نمت وتأصلت . فكل جهد يبذل في هذا الصدد يؤدي الى تسهيل هذه المهمة . ولا يعني هذا ان نقحم قوى الارادة في كل موضوع صغير تافه . فيجب ان نلائم بين الارادة والعمل .

وفي وسع كل منا تقوية ارادته وتربيتها وعلاجها اذا اتبع قواعد يرسمها لنفسه حيث يؤدي اتباعها الى قيامه بشتى الاعباء الملقاة على عاتقه مع اتقانها والتجويد فيها الى حد النبوغ المنشود . وللوصول الى ذلك يجب على كل منا ان يعرف معرفة تامة واضحة ما هو غرضه في الحياة ، وما الذي ينشده فيها ، وهل هذا الغرض يتفق مع مؤهلاته واستعداداته الطبيعية ام لا ؟ ولكي يعرف ذلك حق المعرفة عليه بملاحظة نفسه واستطلاع آراء

الغير فيه حتى تتكوّن لديه الفكرة الواضحة عن شخصيته وعن الهدف الذي يرمي إليه . ومتى ادرك المرء حقيقة شخصيته ، واستقر رأيه على تحقيق غرض معين ، فيجب ان يُسرع برسم خطة للتنفيذ . ويجب ان تشمل هذه الخطة على عدة عناصر اهمها : تقسيم اوقات للعمل ثم اوقات للراحة واللهو . ومتى تم ذلك عليه اتباع هذه الخطة والاسراع الى العمل في وقت العمل ، والى الراحة واللهو في اوقائهما . ويجب ان نؤمن جميعاً ان الانسان يستطيع كل شيء وان العقبات مهما كانت ففي وسعه تذليلها بالصبر والدأب والثبات وشيء من الجلد والتضحية

واخيراً يجب ان نعتقد اعتقاداً راسخاً ان في كل فرد منا يكمن رجل عظيم ، من السهل ان يبرز ويتفوق اذا توفّرت فيه الشروط السابقة واستطاع على مرّ الايام تربية ارادته . ولا شك ان هذه الشروط تصلح للجميع على ان في مقدور كل فرد تحوير بعض اجزائها بما يطابق استعداده وخلقه ومزاجه .

مصادر هذا البحث

تربية الارادة : تأليف جيل بايو L'Education de la volonté par J. Payot.

الانفعالات والارادة : تأليف باين Emotions and the Will G. A. Bain.

الشخصية والارادة : تأليف كلاباريد المولود سنة ١٨٧٣ نشر بمجلة محفوظات علم النفس الفرنسية

La personnalité et la volonté par Ed. Claparède.

الارادة : تأليف بولان المولود سنة ١٨٥٦ La volonté par F. Paulhan.

دروس في علم النفس : تأليف حافظ الجمالي